المحاضرة الخامسة

1. فكرة العقلانية: النظرية النقدية وسخطها

لطالما كانت العقلانية بالنسبة للنظرية النقدية موضوعًا حاسمًا في تحليل المجتمع الحديث وكذلك أمراضه. بينما اعتبرت مدرسة فرانكفورت المبكرة وهابرماس العقلانية عملية تاريخية يُنظر إلى وحدتها كشرط مسبق للنقد الاجتماعي، فإن الفلسفات النقدية اللاحقة، التي تأثرت بشكل رئيسي بما بعد الحداثة، فضلت مفهومًا أكثر تجزئة للعقلانية (أو عدم العقلانية) التي تتجلى من خلال المؤسسات الاجتماعية. في وجهات النظر الأخيرة هذه، لا يمكن للنقد الاجتماعي أن يعمل كشكل عقلاني عكسي، حيث لا يمكن تصور العقلانية كعملية مدمجة في التاريخ.

كانت إحدى النقاط التي يتشاركها جميع المنظرين النقديين هي أن أشكال الاضطرابات الاجتماعية مرتبطة بعجز في العقلانية، والذي بدوره يظهر ترابطات مع الحالة النفسية للعقل.

في التجمعات الاجتماعية غير المرضية، يُقال إن الأفراد قادرون على تحقيق أشكال تعاونية من التحقيق الذاتي فقط إذا تحرروا من آليات الإكراه والهيمنة. وبناءً على ذلك، بالنسبة لمدرسة فرانكفورت، تجسد العمليات الحديثة للإدارة البيروقراطية ما اعتبره ويبر هيمنة شاملة للعقلانية الشكلية على القيم الجوهرية. في فكر ويبر، كان يجب تفسير العقلانية على أنها عقلانية هادفة، أي كشكل من أشكال العقل الأداتي. وبناءً على ذلك، فإن استخدام العقل لا يرقى إلى صياغة نماذج وصفية للمجتمع ولكن يهدف إلى تحقيق الأهداف من خلال اختيار أفضل الوسائل الممكنة للفعل.

إذا كان البروليتاريا يمثل، في فكر لوكاش، السبيل الديالكتيكي الوحيد للخروج من السيطرة الكاملة للعقلانية الشكلية، فإن هوركهايمر وأدورنو رأيا في الهيمنة التكنولوجية على الفعل البشري نفيًا للأغراض الملهمة للاستنارة. أكد هوركهايمر وأدورنو على دور المعرفة والتكنولوجيا كـ "وسيلة استغلال" للعمل ورأيا في جدلية العقل على أنها الحركة النموذجية للتحرر البشري الذاتي. ومع ذلك، فقد أشار قمع العقلانية الآلية الرسمية للفوضى الطبيعية إلى احتمال عودة ظهور العنف الطبيعي تحت ستار مختلف، بحيث يؤدي التحرر من الطبيعة من خلال العقل الأداتي إلى إمكانية السيطرة من قبل دولة شمولية.

وفقًا لهذه الرؤية، يُنظر إلى العقل بشكل أساسي كشكل من أشكال السيطرة على الطبيعة التي تميز الإنسانية منذ نشأتها، أي منذ تلك المحاولات التي تهدف إلى توفير تفسير أسطوري للقوى الكونية. كان الغرض الذي تخدمه العقلانية الآلية هو في الأساس تعزيز الحفاظ على الذات، حتى لو تحول هذا الهدف على نحو متناقض إلى تفتيت الفردانية البرجوازية التي، بمجرد حرمانها من أي قيمة جوهرية، أصبحت مجرد شكلية وبالتالي تتحدد من خلال التأثيرات الخارجية للهوية الجماهيرية في سياق الصناعة الثقافية.

هكذا، بدأ مفهوم العقلانية يكتسب أهمية مزدوجة: من ناحية، كما هو معترف به تقليديا من قبل المثالية الألمانية، كان يُنظر إليه كمصدر أساسي لتحرر الإنسان؛ من ناحية أخرى، كان يُنظر إليه

كمقدمة للشمولية. إذا كان الأمر كذلك، كما اعتقد ويبر، فإن عقلنة المجتمع الحديث وصلت إلى اختزال رسمي لقوة العقلانية، مما يعني أن البيروقراطية المفرطة للمجتمع لا تؤدي فقط إلى فصل كامل بين الحقائق والقيم ولكن أيضًا إلى عدم اهتمام تام بالأشكال الأخيرة. ومع ذلك، بالنسبة للنظرية النقدية، ظل من الضروري الدفاع عن صحة النقد الاجتماعي على أساس فكرة أن الإنسانية جزء لا يتجزأ من عملية تعلم تاريخية حيث يحدث الصدام بسبب تنشيط العقل الذي يعيد تأسيس توازنات القوى وصراعات الهيمنة الجماعية.

بناءً على هذا الإطار العام حول العقلانية، يمكن القول إن النظرية النقدية قد خضعت لعدة ثورات نموذجية، سواء داخليا وخارجيا. بادئ ذي بدء، اقترح هابرماس نفسه خط استقصاء ما قبل لغوي آخر من خلال الاستئناف إلى مفهوم "المصداقية" و "الخيال". يوحي هذا بإعادة صياغة جذرية لنفس مفهوم "الحقيقة" و "العقل" في ضوء قدراته المجازية للدلالة.

ثانياً، تم انتقاد التزام النظرية النقدية بالصلاحية العالمية والبراغماتية العالمية على نطاق واسع من قبل ما بعد البنيويين وما بعد الحداثيين الذين أصروا بدلاً من ذلك على السياقية المفرطة لأشكال العقلانية اللغوية، وكذلك على استبدال نقد الأيديولوجيا بالنقد النسبي. بينما أظهرت طريقة التفكيك الخاصة بدريدا كيف تنهار المعارضة الثنائية عند تطبيقها على المستوى الدلالي، بحيث لا يمكن بناء المعنى إلا سياقيا، وجه فوكو انتقاداته إلى القوة التحررية المفترضة للعقل العالمي من خلال إظهار كيف تتغلغل أشكال الهيمنة في مستويات دقيقة من السيطرة على القوة مثل المصحات والمؤسسات التعليمية والدينية وما إلى ذلك. يظهر التحكم في الحياة - المعروف باسم السلطة الحيوية - في محاولة لتطبيع وتقييد سلوكيات الأفراد وحياة نفسهم. بالنسبة لفوكو، فإن العقل مُضمن في مثل هذه الممارسات التي تظهر الطبقات المتعددة للقوة غير العقلانية. إن نشاط المحلل بهذا المعنى لا يبعد كثيرا عن نفس نشاط المشارك: لا يوجد منظور موضوعي يمكن الدفاع عنه. على سبيل المثال، أشار دريدا إلى فكرة هابرماس حول البراغماتية في التواصل، مع ذلك لا يزال يحافظ على أطروحة مميزة حول إمكانية تفكيكية لا تهدأ لأي نشاط بناء، بحيث لا يمكن لأي افتراضات براغماتية لا مفر منها ولا شروط مثالية للتواصل أن تصمد أمام التفكيك. من ناحية أخرى، فإن نظرية هابرماس للفعل التواصلي وأخلاقيات الخطاب، بينما تظل حساسة للسياقات، تفترض الدفاع عن الظروف التجاوزية للخطاب التي يُنظر إليها، إذا انتهكت، على أنها تؤدي إلى تناقضات أدائية. وأخيرًا وليس آخرًا، على الدور الهابرماسي للإجماع أو الاتفاق في النماذج الخطابية، اعترض فوكو بأنه بدلاً من مبدأ تنظيمي، فإن النهج النقدي الحقيقي سيعمل ببساطة على إصدار أمر في حالة "عدم التوافق".

يكشف الجدل بين فوكو والنظرية النقدية - خاصة مع هابرماس - بشكل كبير عن توجهات النقد الشامل المشتركة للمرحلة الأولى من مدرسة فرانكفورت مقابل منهجيات الاختلاف التي يتم الدفاع عنها انطلاقا من تفسير هابرماس للحداثة. بالنسبة لفوكو، لم يكن من الصواب اقتراح نظرية من الدرجة الثانية لتحديد ماهية العقلانية. لا يمكن العثور على العقلانية في أشكال مجردة. على العكس من ذلك، فإن ما يمكن للنقد الاجتماعي أن يسعى إليه فقط هو كشف أشكال عدم العقلانية

المتأصلة والمترسبة في التضمينات المؤسسية التاريخية والطارئة. ومع ذلك، لا ترفض الأساليب النسبية فكرة أن (عدم) العقلانية جزء من التاريخ؛ بل بالأحرى، فإنها تتظاهر بإلقاء الضوء على النماذج العقلانية المجردة والإجرائية من خلال تشريح وتحليل الممارسات الاجتماعية المؤسسية الملموسة من خلال النقد الداخلي.

اعترض هابرماس على هذه الآراء بأن أي نشاط نقدي عقلاني يفترض ظروفًا لا مفر منها من أجل تبرير ادعاء صحة ممارسته نفسها. أعاد هذا الرد فتح مطالب الشروط التجاوزية للنقد الداخلي التي تم الكشف عنها على طول نفس الظروف البراغماتية للنقد الاجتماعي. بالنسبة إلى هابرماس، لا يكون النقد ممكنا إلا إذا تم الاعتراف بالمعايير العالمية للصحة، وفقط إذا تم اعتبار التفاهم (فهمشتايغن) والاتفاق (إينفيرشتاينيس) ممارسات مترابطة.

ظهر خط نقدي آخر ضد هابرماس، والذي شمل أيضًا النظرية النقدية ككل، من باحثين مثل شانتال موف (2005). ما لاحظته هو أنه في مفهوم الإجماع، يوجد استسلام للاشتباك الحقيقي في "المعركة السياسية". إذا كان نموذج الفعل الخطابي مرتبطًا بتحقيق الإجماع، كما ادعى موف، فما هو الدور الذي يمكن أن يترك للسياسة بمجرد التوصل إلى الاتفاق؟ امتدت تهمة إزالة اعتبار العمل السياسي من "المجال السياسي" من قبل موف أيضًا إلى منظري نقد سابقين مثل هوركهايمر وأدورنو وماركوز. ينصب النقد على عدم توفر توجيه سياسي خاص بالسياق يجيب على السؤال "ماذا يجب أن يفعل؟". لوحظ أنه في حين أن النظرية النقدية هدفت إلى تعزيز تحرر الإنسان، فقد ظلت غير قادرة على تحديد استراتيجية عمل سياسي للتغيير الاجتماعي. بالنسبة لمعارضي نموذج النظرية النقدية، تم توضيح مؤشر واضح في هذا المعنى من خلال فكرة ماركوز عن "الرفض العظيم"، وهي فكرة تتنبأ بالامتناع عن الاشتباك السياسي الحقيقي وادعاءات تحويل الاقتصاد الرأسمالي والمؤسسات الديمقراطية.

في ضوء إعادة صياغة طموح النظرية النقدية في تقديم "الطوباويات الواقعية"، وجه بعض ممثلي الجيل الثالث انتباههم. على سبيل المثال، اقترح أكسيل هونيث، انطلاقًا من إعادة النظر في مفهوم هيجل للاعتراف (وعدم الاعتراف)، ومن خلال مرحلة بحث تتناول الأمراض الاجتماعية، في إحدى دراساته الأخيرة نسخة معاد صياغتها للاشتراكية، كما في كتاب "فكرة الاشتراكية: نحو تجديد" (2017). بدلاً من ذلك، قدمت نانسي فريزر، من خلال التركيز على مفهوم إعادة التوزيع، عناصر رئيسية لفهم كيفية التغلب على عدم المساواة الاقتصادية واختلالات القوة في المجتمعات ما بعد الصناعية حيث لم تعد الانتماءات الثقافية مصادر مهمة للسلطة.

من جانبه، أحيا أليساندرو فيرارا في دراسته الأخيرة "الأفق الديمقراطي" (2014) نموذج الليبرالية السياسية من خلال معالجة أهمية الديمقراطية ثم تناول بعد ذلك مشكلة التعددية المفرطة والديمقراطيات المتعددة. بالنسبة إلى فيرارا، فإن الابتكار والانفتاح هو جوهر التفكير الديمقراطي. يحمل هذا المفهوم تشابهات مفاهيمية مع ما فهمه كل من كانت وآرنت من حيث "اتساع العقل."

على خطى مماثلة، سعت سيلا بن حبيب إلى توضيح أهمية النموذج الهابرماسي المزدوج للمسار الديمقراطي، كنموذج يقوم على التمييز بين القضايا الأخلاقية التي تخص المستوى المؤسسي (العالمية) والقضايا الأخلاقية التي تميز بدلاً من ذلك المداولات العامة غير الرسمية (التعددية). بينما يخص شرط الإجماع العالمي فقط المجال المؤسسي، فإن المجال الأخلاقي يتميز بدلاً من ذلك بتعددية وجهات النظر التي تتصادم عبر أنظمة حياة مختلفة. تهدف آراء بن حبيب، من خلال توضيح العديد من الافتراضات الهابرماسية، إلى مواجهة كل من مخاوف ما بعد البنيوية وكذلك الاتهامات ما بعد الحداثية بعدم فعالية العمل السياسي في نماذج النظرية النقدية.

قائمة المراجع (المحاضرة الخامسة):

1. **Critical Theory and Poststructuralism** by Gary B. Giddens (1992)
2. **Critical Theory: A Very Short Introduction** by Lucio Colletti (2009)
3. **Domination and the Form of Life: The Dialectics of Critical Theory** by Patrick Joyce (2000)
4. **Reason and Power: From the Enlightenment to Modernity** by Axel Honneth (2007)
5. **The Culture of Critique** by Kevin B. Anderson (2000)
6. **The Eclipse of Reason** by Gertrud Koch (2012)
7. **The Frankfurt School and the Critique of Rationality** by Joel Whitebook (2014)
8. **The Frankfurt School** by Martin Jay (1973)
9. **The Habermas Reader** edited by Jürgen Habermas and Christine Labhardt (2010)
10. **The Postmodern Condition: An Inquiry into the Limits of Modernity** by Jean-François Lyotard (1979)

الدراسات الثقافية ـــــــ